أصول الأدب الإسلامي

إعداد

ا.د/ زهران محمد جبر عبد الحميد

أستاذ الأدب والنقد - كلية اللغة العربية بأسيوط

أصول الأدب الإسلامى

من المعروف أن الشعر الجاهلى احتل مكانة رفيعة فى حياة العرب قبل الإسلام ، ولعله كان وسيلة الإعلام الأولى فى ذلك العصر ، حيث كان ذخيرة للقيم والأخلاق ، والمنازع الفكرية آنذاك ، كما كان سجلا لأيام العرب والأحداث الكبرى التى هزت كيانهم وضمائرهم والتشريع السائد إلى غير ذلك من المقومات المادية والمعنوية التى تشكل أساس الحياة وحركتها فى أى زمان ومكان .

ثم جاء الإسلام كحدث تاريخى أزلى مزلزل ، وأطلق شعاراته المدوية التى تناولت شتى الجوانب فى حياة الفرد والجماعة وقدم الصورة المثلى ، والإيمان الصحيح ، ووضع مقاييس الرجولة الحقة والكرامة الصادقة ، والتقويم السليم للعمل فى إطار الوحى المنزل .

وعلى ضوء تجربة القدوة الصالحة المتمثلة فى الرسول ــ صلى الله عليه وسلم وصحابته والمؤمنين برسالته نساءا ورجالا كبارا وصغارا ، سادة وعبيدا حكاما ومحكومين ، تغيرت صورة الحياة تماما ، وأصبح القرآن الكريم فى العصر الإسلامى الجديد أساسا ومنطلقا إعلاميا لا يبارى ، بعظمة مبادئه وروعة بيانه وإعجاز نسقه ، وقداسة منشئه[1].

---

[1] ص ١١ : ١٢ : آفاق الأدب الإسلامى ، د/ نجيب الكيلانى .

لكن ماذا كان الموقف من الشعر العربى عندئـــذ ؟؟ وكيـــف أصبـــح موضعه أو موقعه ؟؟

فيما يُروى من تلك القصة البسيطة عن الرسول ــ صلى الله عليـــه وسلم ــ ما يضع الإجابة الصحيحة على ذلك التساؤل دون شك أو ريبة، لقد طلب الرسول من حسان بن ثابت ــ شـــاعر الإســـلام آنـــذاك ــ أن ينبرى للمشركين وشعرائهم ليرد عليهم ، وكانت دعوة الرسول إشـــارة إلى منطلق جديد للشعر والشعراء فى ظل الدعوة الإسلامية .

كان الشعر الجاهلى يهتف بالأحساب والأنســـاب والتعـــالى والفخـــر الأجوف ، ويتباهى بالآلهة الزائفة والقيم الجائرة التى لم يتولـــد عنـــها سوى الظلم والفساد والدمار ، ولم يكن فى شعرهم (قيمة كبرى) يبذلون من أجلها الدماء والأرواح والأموال ســـوى الاعـــتزاز بمجـــد الآبـــاء وعقائدهم وتصوراتهم عن الموت والحياة والسلطة والبطش ينتظمـــهم قول الشاعر :

لا يسألـــون أخاهـــم حين يندبهـــم للنائبـــات على ما قـــال برهانـــا

أو يهتفون بقول شاعرهـــم :

"ومن لا يظلـــم النـــاس يظلـــم"

ولما جاء الإسلام وجدنا أن اسم الشاعر يقترن فى القـــرآن الكريـــم بأسماء المجنون والساحر والكاهن ، ويقترن كذلك بإســـم الشـــيطان ، ويعنى هذا الإفتراض أن الشعر لا يجئ بالحق فهو شأن السحر والكهانة

والجنون ؛ جزء من عمل الشيطان الذى (يزين) و(يضـــل) فيرى الباطن حقا والحق باطلا[١]

وقد وقف القرآن الكريم ومن ثم الشرح عند السحر بشكل خـــاص . قال تعالى (ويقولون أئنا لتاركوا ألهتنا لشاعر مجنون)[٢] .

وقال تعالى : (هل أنبئكم على من تنزل الشياطين تنزل على كل أفاك أثيـــم)[٣].

وقال تعالى : (وما هو بقول شيطان رجيم)[٤] .

وقال تعالى : (فلما جاءتهم آياتنا مبصرة قالوا هذا سحر مبين)[٥] .

وقال تعالى : (وما هو بقول شاعر قليلا ما تؤمنون)[٦].

وقال تعالى : (وما علمناه الشعر وما ينبغى له إن هو إلا ذكر وقرآن مبين)[٧].

ولكن القرآن الكريمة لم يحرم الشعر كما حرم السحر والكهانة وإنما وجهه وجهة أخرى ، ربطه بالدين ، فجعله أداة لخدمته ، وقرر أن مـــن

---

(١) ص ٩٩ : نحو أدب إسلامى معاصر ، أسامة يوسف شهاب.

(٢) الآية ٣٦ الصافات .

(٣) الآية ٢٢١ الشعراء .

(٤) الآية ٢٥ التكوير .

(٥) الآية ١٣ النمـــل .

(٦) الآية ٤١ الحاقـــة .

(٧) الآية ٦٩ يـــس .

الشعراء من آمن وعمل الصالحات وذكر الله كثيرا . قال تعالى (والشعراء تبعهم الغاوون ألم تر أنهم فى كل واحد يهيمون وأنهم يقولون ما لا يفعلون إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وذكروا الله كثيرا وانتصروا من بعد ما ظلموا وسيعلم الذين ظلموا أى منقلب ينقلبون)[١].

وفى الحديث : "إن من البيان لسحرا وإن من الشعر لحكمة " ، يعنى أن من البيان ما يؤثر فى العقل والقلب تأثير السحر ، غير أن النبى ـ صلى الله عليه وسلم ، كان يستحسن بالمقابل بعض الشعر الجاهلى حيث قال عليه الصلاة والسلام : "ما وصف لى أعرابى قط فأحببت أن أراه إلا عنترة" . كما أنشد بعض أبيات أمية بن أبى الصلت ، وقال عنه : "آمن شعره وكفر قلبه ، وكاد أمية ليسلم"[٢].

فالرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ استمع للشعر وحث الشعراء المسلمين على الإكثار من شعر الهجوم والدفاع ، كما استراح عليه الصلاة والسلام للشعر الداعى إلى الخلق القويم[٣].

وقد قال للشاعر كعب بن مالك : "لقد شكر الله لك قولك حيث تقول :

زعمت سخينة أن ستقلب ربها وليغلبن مغالب الغلاب"

وحيث سمع صلى الله عليه وسلم قول طرفه بن العبد :

---

(١) الآيات ٢٢٤ ـ ٢٢٧ الشعراء .

(٢) جمهرة اشعار العرب ، القرشى .

(٣) ص ٩ : دلائل الإعجاز ، عبد القاهرة الجرجانى ، العمدة لابن رشيق ، العقد الفريد .

ستبدى لك الأيـام مـا كنـت جاهـلا ويأتيـك بالأخبـار من لم تـزود

قال : "هذا من كلام النبـوة" .

ولما أنشده صلى الله عليه وسلم النابغة الجعدى وانتهى إلى قوله :

ولا خيـر فى حلـم إذا لم يكـن لـه بـوادر تحمـى صفـوه أن يكـدرا

ولا خيـر فى جهـل إذا لم يكـن لـه حليـم إذا مـا اورد الأمر أصـدرا

قال (ص) لا يفضض الله فـاك .

وقصة كعب بن زهيـر أشهر من أن تذكر ، فقد أهدى صلى الله عليه وسلم بردته لكعب وأشار إلى جلسائه : أن اسمعوا وفى مقابل ذلك قتـل ابن خطل وابن ضبابـة وأوعد بن الزبخرى وجبرة بن وهب وغيرهمـا ممن ينال من الدعوة ، وينهش أعراض المسلمين فهاموا على وجوههم وهربوا إلى كل فج ، ولكنه صلى الله عليه وسلم قبل توبة كعـب بـن زهير حينما وفد عليه تائبا[1].

أما حسان بن ثابت الترجمان الشعرى للفجر الجديد فقـد كـان لـه موقف آخر ومنهج مخالف ، لقد وقف شاعرا يستعرض العقيدة الصافية والحياة البريئة البادئة وحياة النبى المرسل وتصرفات أتبـاع العقيـدة الطاهرة من المؤمنين ، والعلاقات السامية التى تربط بين أفرادها وبينهم وبين الآخرين ، ويترنم بالقرآن وآياته وبالجهاد فى سبيل الله وعظمته ، وبأمل المستضعفين وحقهم المقدس فى حياة حرة شريفة منزهـة عـن

---

[1] ص ٢٣٤ : مذاهب النقض وقضاياه ، د/ عبد الرحمن عثمان .

النقائص ، مبرأة من الأدناس .

كان يضع ملامح حياة جديدة وحضارة جديدة تأخذ بالألباب والقلوب ، وتصدع الإدعاءات الجاهلية الباطلة والبراهين الواهية الكاذبة .

ولم يكن حسان بن ثابت وحدة فى هذا المجال بل شارك فى العطـــاء نخبة من الشعراء الذين أسلموا .

وبالنظر إلى التراث الشعرى الذى سجله التراث عن تلك الفترة فـــى التاريخ الإنسانى نلاحظ الآتى[١] :

أولا : العقيدة الإسلامية وجهاد المسلمين هى مصدر الإلـــهام وانطـــلاق الشعراء ومجال إبداعهم وبراعتهم فى فن القول .

ثانيا : اختفت مطولات تأليه البشر ورفعهم إلى مصاف القيم المطلقـــة ، واسباغ صفات العصمة والعظمة عليهم والوقوع فى مبالغات غريبـــة لا يصدقها العقل ولا تستقيم مع الواقع .

ثالثا : اختفى أو كاد الهجاء المقذع الذى يخوض فى الأعراض ويتســـم بالبذاءة والإفتراء والادعاء ، ويلوث سمعة الأفراد وينال من كرامتـــهم وتاريخهم ، ويصمهم بأبشع التهم وأحطها . وموقف الفاروق عمر ممـن ولغوا فى أعراض الناس من الهجائيين موقف حازم وكذلك من تلاه مـن الراشدين .

رابعا : تحول الفخر الأجـــوف والمـــدح الأخـــرق للرؤســـاء والأفـــراد

---

[١] ص ١٣ : آفاق الأدب الإسلامى ، د/ نجيب الكيلانى

المرموقين إلى تغن بفضائل الإسلام ورجال العقيدة ، وثناء على من يحقق إنجازات إنسانية فى إطار الدعوة الخالدة مع نسبة الفضل كله فى هذا لله وحده .

خامسا : خفت حدة الغزل المريض ، وانمحت صورة الحب الفاضح وأصبح وصف الغرائز المنحطة لونا من الفحش والصفاقة لا يقرها الإسلام بل يعاقب عليها.

سادسا : تراجعت صورة الوصف الحسى وأخذت القيم المعنوية أصلا عن الإسلام تهيمن على قصائد الشعراء النظفاء ومقولات الحكماء .

سابعا : لم يعد الشعر بضاعة تزجى فى الأسواق ولم يعد الهدف فيه جائزة مادية كبرى ، أو نيل حظوة لدى صاحب نفوذ ، أو اكتساب رضى وتكريم قبيلة من القبائل ، بل أصبح صوتا من أصوات الدعوة إلى الله وسلاحا من أسلحة المعركة وترجمانا عن آلام المسلمين وآمالهم[١].

ثامنا : لم تخفت نبرة التعبير عن عواطف الناس وقضاياهم ، فكانت تؤدى بصدق ، ولم تفقد رونقها وعذوبتها ، ولننظر إلى قول السجين الحطيئة الذى وضع فى محبسه لمبرر قوى ماذا يقول لعمر ابن الخطاب فى رسالته إليه يستعطفه[٢] :

ماذا تقول لأفراح بذى مرخ زغب الحواصل لا ماء ولا شجر

---

[١] ص ١٤ وما بعدها السابق .

[٢] ص ٢٠٣ : الشعر والشعراء لابن قتيبه ، دار الكتب العلمية بيروت ، ١٩٨٥م ط٢ .

ألقيت كاسبهم فى قعر مظلمة فاغفر عليك سلام الله يا عمر

تاسعا : تناول الشعراء شخصية الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ تناولا لا يخرج عن إطار المفهوم السائد للعقيدة السمحة كما يقول كعب ابن زهير :

إن الرسول لنور يستضاء به مهند من سيوف الله مسلول

عاشرا : ظهرت فى أساليب الشعر وألفاظه وعباراته آثار القرآن الكريم ، ونمط بيانه المعجز ، والأحاديث النبوية وقيمها العقدية والسلوكية المختلفة ، لكن هل بقى الوضع على هذه الصورة الأمينة لأدب الدعوة الإسلامية ؟ وهل تطورت هذه الصورة مع العصور المتلاحقة إلى أشكال فنية ومضامين فكرية خلاقة ؟ وهل أدت رسالتها فى خدمة المجتمع والعقيدة ووقفت فى صف العدل والإنصاف والطهارة والصدق ؟

إن متابعة تاريخ الأدب بعد ذلك يعطى إنطباعات مؤلمة ومحزنة ، وعلى الرغم من ظهور شعراء كبار دانت لهم ناصية القول وأثبتوا براعتهم الفنية وقدراتهم اللغوية والبلاغية الفائقة ، وعلى الرغم من ظهور قلة من الشعراء الملتزمين إسلاميا فى هذا العصر أو ذاك .

فلقد ظهرت الفتن وسادت الإنقسامات وبرزت المذاهب السياسية والدينية ، واحتدمت الخلافات العرقية أو العنصرية ، وتغيرت صورة الحكام ونظم الحكم، ودخلت إلى المجتمع الإسلامى أنماط غريبة من السلوك والأفكار والنظريات الفنية والفلسفية . وأصبح الأدب خليطا وأمشاجا يصور هذه التداخلات الفجة وصار الشعر على وجه الخصوص

لسانا لأمير أو قائد ، وترجمانا لفلسفة أو مذهب ، وداعية لجنس من الأجناس ، أو قومية من القوميات ووسيلة للكسب إجتماعيا وأدبيا وهو فى نظرهم كسب مشروع وانتشرت مجالس الخمر والقيان والرقص والغناء والممارسات الخارجة عن أصول الآداب الإسلامية وواكب الشعر هذا التردى فى الأخلاق واستعار إهابه من هذا الانحدار والسقوط فجاء ثلاثة أرباعه متخما بالمعانى الهابطة والصور المقززة .

لقد انتكس الأدب وعاد إلى ما هو أبشع من الجاهلية القديمة ، ولننظر فى تلك المساحة الشائعة فى العصر الأموى والعصر العباسى وفتراته ، وما تلى ذلك من عصور ، ولنتذكر أشهر الشعراء والكتاب فى هذه الحقب ولنحاول قياس حركتها الفنية بالمقاييس التى أقرها المسلمون فى فجر الدعوة الإسلامية فماذا نرى ؟؟[1] أو يمكن أن يطرح سؤال فحواه لماذا الأدب الإسلامى ؟ ثم نأتى إلى العصر الحديث .

لا ينكر أحد أن آداب الأمم قاطبة تعكس تراثها وعقائدها وتصوراتها عن الإنسان والكون والحياة . فالأدب الأوربى أو الأمريكى يكشف سر العلاقات الإنسانية وميراث الأمم ، ونظرة الفرد للمجتمع ، وطموحات وآمال البشر هناك، كما يفصح عن أزماتهم وآلامهم ، والمتاهات التى تجرهم إليها التخمة المادية مع الخواء الروحى أوالقهر الإجتماعى ، وينبئ عن التخبطات والتيه المدلهم ، حيث تضيع الحلول الصحيحة لأزمة الإنسان الروحية ، وحيث تضيع معطيات السعادة الحقة ، والإيمان

---

[1] ص١٦ وما بعدها : آفاق الأدب الإسلامى بتصرف ، د/ نجيب الكيلانى.

الصحيح ، والشعور بالمرضى ، وأدب الستار الحديدى فى وضع سيئ للغاية ، فهو لا يفصح عن أحزان الإنسان الجائع الروحى ، ولا يعرف وسيلة لإبراز مكنون الذات ، ولا يملك حق الاعتراض أو النقد ، فأصبح المتلقى لذلك الأدب ومتعاطيه يتحرك كالآلة فى صورة الآدمى لكنه مجوف هواء ، سلب منه جوهر الإنسان فصار مسخا شبه إنسان وهو ليس كذلك ، مخدوعا بالشعارات متغنيا بالمنجزات الهلامية طالما صدر عن رأى حزب انتمى إليه . والأديب قبل هذا المتلقى مهمته هى التسبيح بحمد الفلسفات المعينة والثناء على المناهج الفكرية التى يخضع لها أو تقديس المسيرة الصامتة المقهورة فى ركاب فلسفة مفروضة من أجل لقمة العيش .

ثم كان أن وقع أدباؤنا فى خطأ تاريخى ومنهجى خطي أثر فى حياتنا الأدبية تأثيرا كبيرا ، وبالتالى تأثرت مفاهيمنا ومناهجنا بعد أن وقع أدباؤنا فى ربقة التقليد فاستوردوا المذاهب والمضامين الفكرية مع الأشكال الفنية المستحدثة ، ولم يستطيعوا أن يقدموا أدبا متميزا ينم عن شخصيتهم ، أو ينبض بعقيدتهم ، أو يصدق فى التعبير عن هويتهم وينابيعهم السلوكية ، والتمس كل من نبغ فى ميدان ؛ القدوة عند الغربيين وجعله إماما اتخذه معلما ظانا أن التطور والتحديث لن يتما إلا بهذا الأسلوب وهذه الطريقة ، فوقع أكثرهم فى الفخاخ والشراك المنصوبة لهم بعناية دون وعى وحذر وانسلخوا أو كادوا ينسلخون من جلودهم .

والغريب أن كما هائلا من نقادنا وأدبائنا قد سكر بهذه الألوان

والمضامين حتى رموا من لم ينقد لها ويتعبها طوعا أو كراهية بالجمود والتحجر ، والسكر فضيلة ومتاهة وتخبط ، وترتفع الأصوات من كل شق لماذا لا يصبح أدبنا عالميا ؟

والإجابة فى غاية البساطة ، لأن هذا الأدب تقليد شائه لآداب العلم فى غالبية مفتقد للأصالة ، لا ينزع عن أسس تميزه ، ولا يصدر عن قيم خاصة به، ولأنه لم يبتكر فى صيغة مميزة ذات ملامح خاصة . فلا يمكن أن يتحرك قيد أنملة خارج حدوده .فإذا تعرفنا على العالم من خلال أدبه، فإن العلم يريد أن يعرف من خلاف أدبنا من نحن ؟ وكيف نعبر ؟ وماذا نريد ؟؟ وما هو الجديد الذى نريد أن نقدمه له ؟ أما أن نقدم له شيئا من فئات موائده ، أو ثمرات حديقته ، أو نرد إليه جزءا من بضاعته التى صدرها إلينا ، فهو فى غنى عن هذا المشوه للأصل ، بل إن مستشرقيهم يجدون فى تراثنا القديم لدى المتنبى والجاحظ وابن سينا والغزالى وابن رشيد وغيرهم ما يغنيهم عن هذه المحاولات الفجة المختلطة فى أدبنا الحديث .

ولم يعرف الأدب العربى فى تاريخه الطويل رياحا تقتحم منافذه كالتى هبت عليه فى هذا القرن ، فقد تأثر أدباؤنا بألوان شتى من الأدبيين الشرقى والغربى، تلون إنتاجهم بكل لون خاصة الشعر ديوان العرب الأكبر وأعرق أجناسهم الأدبية ، أحاطت به العواصف ، وتركت بصماتها على كل قطعة من جسده.[١]

---

[١] ص٢١٨ : نحو أدب اسلامى معاصر ، أسامة شهاب .

هذه العواصف تمثلت فى المذاهب الأدبية التى تسربت إلينا وصارت لها منابر فى أدبنا العربى ، وعدد كبير من أدبائنا تحولوا إلى دعاة مخلصين لها ، واستطاعوا أن يكونوا جيوبا غير صغيرة لا يستهان بها على سطحه ، فالماركسية التى اتخذت الواقعية الإشتراكية مذهبها الأدبى وجعلتها قناعا تتستر وراءه لها أدباء يصدرون عن تصوراتها ويدعون إليها بأعمالهم الأدبية ، فى معظم البلاد العربية ، وإنتاجهم غزير احتضنته بعض الأنظمة العربية فى فترات مختلفة وسخرت له وسائل الإعلام ، وأقامت له دور نشر تروجه بكل ما فيه من زيف وغثاثة ، ورعت أدباءه الناشئين حتى استوت أقلامهم وأصبح بعضهم مشهورين لتسليط الأضواء عليهم عن عمد ومن هؤلاء : عبد الوهاب البياتى ، ومحمد الفيتورى ، وأحمد عبد المعطى حجازى ، ومحمود درويش، وتوفيق زياد ، وعبد الرحمن الشرقاوى ومحمود أمين العالم وعبد العظيم أنيس ومحمد مندور وغيرهم .

والوجودية ذات الجمهور الضيق وجدت فى أدبنا وأدبائنا من يحمل تصوراتها ويكتب القصص والقصائد والمقالات النقدية التى تروج مقوماتها مفهوماتها وقضاياها مثل زكى نجيب محمود ، ونجيب محفوظ فى بعض قصصه وسهيل ادريس وغادة السمان[1] ...إلخ

بينما أبت النظم ذاتها على العمل بشدة لحجب المبدعين الذين صدروا

---

[1] ص ٩٣ : مقدمة لنظرية الأدب الإسلامى . عبد الباسط بدر .

فى أعمالهم عند رؤى إسلامية والتزموا فى كتاباتهم المنهج القويم والمسلك السامى من أمثال محمود جبر شاعر آل البيت وعلى أحمد باكثير وعبد الحميد جودة السحار وغيرهم .

ومنذ أن أقتحمت هذه المذاهب ساحتنا تباينت ردود الفعل ، ونظرا للأزمات الخانقة التى يمر بها الأديب العربى فى هذه المرحلة القلقة غابت عنده الرؤية وأصبح ممزقا فانماعت شخصيته واهترأت وتاه وسط طوفان المشكلات وأهتز الانتماء فتحركت الأرض تحت قدميه وأصيب بالدوار ، فلم يلتمس المخرج من هذه الأزمة بإستقلال الرؤية التى تستمد عناصرها من عقيدته وتميزها من انتماء الأديب إلى قيم واضحة بل ظل عالقا بالوهم ولج فى تمرده فاستعبدته الأشكال الوافدة والسرابات الخلابة فضاع وأضاع .

وأخذت المذاهب الأدبية الغربية على اختلافها برقاب الأدباء والنقاد على مدى فترة ليس بالقصيرة فى العصر الحديث وظلوا يلوكون مستحدثات أولئك لزرعها عنوة فى ساحة الأدب العربى . ومع كل تلك المحاولات المقصودة يظل تيار خفى يتواصل يمثل هذا الأدب المتميز المثمر ويستمر ويتنامى مع كل ألوان العسف والمصادرة والتنكيل والحجب واعداد العدة لمحاربته بينما تتهاوى تلك النظريات والفلسفات الواحدة تلو الأخرى ، والمساكين الذين كانوا بالأمس كلاسيكيين تحولوا إلى رومانسيين وعندما تهاوى صنم الرومانتيكية هرعوا إلى الواقعية ثم هاموا بالفن للفن وما لبثوا أن هجروه إلى السريالية والرمزية فى لهاث عجيب يكشف وينم عن عدم الثبات والكذب والنفاق والميل إلى حيث

المصلحة ويتعاطون أدب الزلفى والباطل .

ومن جراء إدمان هؤلاء الأدباء الإطلاع على الآداب الأجنبية واستوعبوها فى شغف ولذة واعتبروها المثل الأعلى فى الشكل والمضمون والقيم التى يروج لها ، ومن خلال تأثر الأديب بذلك المقروء وتجربته تلك يبدأ كتاباته ، ويرسم تصوراته ويحدد ملامح شخصياته وينطقها بما شاء من أفكار فى أعماله الأدبية النثرية ويملى عليها السلوك الذى ارتآه ، ثم ينسب هؤلاء اللقطاء إلى بيئتنا الإسلامية ، بعد أن يعطيها من الأسماء ويلبسها من الأزياء وينطقها من اللهجات وما يتفق وظاهر الأمور فى مجتمعاتنا . وهكذا ولدت فى آدابنا وفنوننا أنماذج غريبة وبعيدة كل البعد عن التكوين الصحيح للشخصية ، تلك الشخصية التى تتأثر علميا بعوامل الوراثة والجنس والبيئة والعقيدة .

وعندما تتفشى مثل تلك الظواهر وهذا الغثاء فلا أقل من أن نحمى تراثنا نم الخلط والتبنى لهذه الكائنات الغريبة علينا .

نحن نقرأ النتاج الأدبى الأجنبى ــ على الأقل مترجما ــ أو مشاهدة أو نسمعه لكننا نعلم مصدره ، لكن الكارثة أن يقدم لنا مثيل له بعد تبنيه ونسبته إلى فلسفتنا وبيئتنا .

ولا يمكننا القول بأن النماذج الأوربية أو الأمريكية أو الشيوعية التى هوت وما زالت تجرى فى دماء بعضهم ، ومن يتمسح بغبارها المتناثر فى الفضاء من بقاياها تستطيع أن تعبر عن مأساة حقيقية كمأساة الشعوب المقهورة من المسلمين فى البوسنة والهرسك ، أو مأساة

المتشردين الهائمين على وجوههم فى الشيشان أو أولئك الذين تحفر لهم خنادق الإبادة فى بورما والفلبين ، كيف تفرزز آدابهم مشاعر ودموعا وآلاما تتوافق وتتواءم مع ذلك المظلوم الذى قهرته حضارتهم وساعدت الأعداء على طمس معالم شخصياتهم[١] ، إنهم لا يعرفون معنى الجهاد والمجاهد ، ولا نجد فى محافلهم النماذج الطاهرة التى تتفاعل بشرف ، وتنبض قلوبها بحق الخير المطلق والعدالة العليا ، دون تفرقة من لون أو جنس ، أو لغة أو عقيدة ، والمصيبة والطامة الكبرى أن (أدباء العزلة) فى بلادنا الإسلامية يثرثرون ويتحدثون وينظرون للحداثة والتناحى والتفكيك والتشكيك لاهين عما يدور حولهم والعدو يكاد يأتى على الفطيرة كلها أو على الكعكة .

وهكذا تدلنا النظرة السريعة إلى أدبنا العربى أنه قد توزع وراء عقائد منحرفة ، واستقطبته المذاهب الفكرية والفلسفية إلى حد كبير ، وما زالت تبذل الجهود الضخمة وتمارس ألوان القهر المادى والفكرى على شعوب العالم الإسلامى على ضعفها وتخلفها[٢] .

وتنفق الأموال الطائلة لقتل ما بقى من شخصيتها الإسلامية ، ولمحاصرة إسلامها فى زوايا المسجد وعزله عن الحياة الإجتماعية والسياسية والفكرية ، ولتصويره فى أحسن الأحوال على أنه تراث مجيد لا يصلح للحياة المعاصرة ، ومن أشكال هذه المحاصرة تطبيع الفرد

---

[١] ص ٨٧ وما بعدها : آفاق الأدب الإسلامي ، د/ نجيب الكيلانى .

[٢] ص ٩٥ : مقدمة لنظرية الأدب الإسلامى ، عبد الباسط بدر .

المسلم بطوابع المدنية الشرقية أو الغربية وملئه[١] بقيمتها وتصوراتها وسلخ عقيدته وتغيير ثقافته وآدابه وفنونه وتحويلها إلى نسخ يقلد الآخرين حتى يسهل اقتلاعه واجتثاثه من الأرض.

ومنذ أن بدأ الأدب الغربى يؤثر فى آدابنا ظهرت آثار النصرانية على أجزاء مختلفة من أدبنا وظهرت أيضا مظاهر التأثر بالفلسفات الغربية والشرقية المختلفة .

أما الآثار النصرانية فقد أوجدت مناخا نصرانيا يبدو فى كتابات لويس سخو وسلامة موسى وغالى شكرى ولويس عرض ، وايليا حاوى، وخليل حاوى وجبرا إبراهيم جبرا وغيرهم ، وقد برزت الرموز النصرانية والصور الإنجيلية فى إنتاج شعراء مسلمين كثيرين من أبرزهم بدر شاكر السياب وصلاح عبد الصبور .

وفى ميدان القصة إستطاع الكتاب النصارى أن يزرعوا وبدهاء السلوك المنحرف ببراعة ، وأن يشوهوا صورة الأسرة المسلمة والشخصية المسلمة بتتبع النماذج المنحرفة واختلاقها فى أحيان كثيرة وإشاعتها وتقديمها على أنها صورة للواقع ، ويبدو هذا التشويه فى النماذج الشوهاء التى قدموها لمدرس اللغة العربية ، ومدرس العلوم الإسلامية والمأذون وإمام المسجد والمؤذن ، وبقية الشخصيات التى يرتبط شكلها أو سلوكها بالإسلام ، وكذلك فعلوا فى المسرح الشئ نفسه، وساعدهم على ذلك معظم رواده كانوا من النصارى ، وكم أفسد

---

[١] ص٥٤ : السابق

المسرح! وكما أساءت المسرحيات المكتوبة والمتمثلة إلى الشخصيات الإسلامية فى حاضرنا وفى تاريخنا ، ويكفى أن نذكر أنهم ربطوا المسرح بالفئة المستهترة والمتعهرة حتى ليكاد يكون فناً مصادماً للإسلام فى معظم جوانبه .

ومن حاول الكتابة فى إطار القيم الإسلامية وسلوكياتها أو بعث الأنموذج والقدوة من السلف الصالح أسدلوا عليه وعلى نتاجه أستار التعتيم وأهملوه عمداً وتحيفا وشوهوه مقيداً ومارسوا عليه ألوان البلطجة والإرهاب حتى يحتجب .

لقد نصّر الأدباء النصارى جانباً من أدبنا العربى بأساليب فنية بارعة تخفى على القارئ العادى فى كثير من الأحيان وهذا مكمن الخطر فى عملهم وفى خبث ودهاء بالغين أشاعوا قيماً مضادة للقيم الإسلامية ، كما زرعوا مفهومات ورموزاً نصرانية كثيرة فى الشعر والقصة والمسرحية على حد سواء .

وجرياً على قول القائل المستشهد بما كفر به الكافر ليس بكافر أو ناقل الكفر ليس بكافر ونحن لا نكفر مسلماً ولا نملك ذلك أسوق على الأسماع نماذج توضح ما قلناه من قبل خاصة فى الشعر وكيف انحرف كثير من الشعراء بعقيدتهم وفكرهم عن الجادة . يقول بدر شاكر السياب مسيئا الأدب فى تصوير الألوهية[1] :

---

[1] ص ٦٠ : مقدمة لنظرية الأدب الإسلامى ، عبد الباسط بدر .

١ــ فنحن جميعا أموات
أنا ومحمد والله
هذا قبرنا انقاض مئذنة معفرة
عليها يكتب اسم محمد والله
على كسر مبعثرة ... من الآجر والفخار
.....
فيا قبر الإله على النهـــار
ظل لألف حربـــة وفيل ...

ويقول أدونيس فى سطرية انتصـــار :
غنيـــت للأفـــول
رقصت فوق جثة الإلـــه

وليدوى الجبل فى عرائس الشعر هذه الأبيات المنحلة الخارجة :

نشـــارك الله جـــل الله قدرتـــــه ولا نضيـــق بـــها خلقـــاً وإتقانـــاً
وأين انســـانه المصنـــوع مـــن حمـــأ ممـــن خلقنـــاه أطيابـــاً وألحانـــا
ولـــو جلـــى حســـنة إنســـان قدرتنـــا لـــود جـــبريل لوضعنـــاه إنســـانا
يغنـــى الجميـــع ويبقـــى الله منفـــرداً فـــلا أنيـــس لنـــــور الله لولانـــا
لنـــــا كلينـــا بقاء لا انتهـــاء لـــه وسوف يشكو الخلود المرأ بقانـــا

٢ــ وفى رفض مفهومات الشريعة الإسلامية للشعراء المحدثين تجاوزات وزلات . يقول نزار قبانى فى سطريته (خبز وحشيش وقمر) :

فى بـــلادى فى بلاد الشـــرق لما
يبلـــغ البـــدر تمامـــــه
يتعرى الشرق من كل كرامة ونضال
والملايين التى تركض من غير فعال

التى تسكن فى الليل بيوتا من سعـــال
والتى تؤمن فى أربعة زوجات وفى يوم القيامة

ويقول بدوى الجبـــل :

إن الخلـــود ومـــا تـــروى مزاعمـــهم عن السعادة فى الأخـــرى نقيضـــان
لا يخـــدع الله قومـــا يؤمنـــــون بـــه فتلك خدعـــة إنســـان لإنســـــان

٣ــ قلب الرموز الإسلامية وتشويه دلالاتها :

يقول نزار قبانى فى أشعار خارجة عن القانون :

أوقفونى وأنا أضحـــك كالمجـــون
من خطاب كان يلقيـــه أمير لمؤمنين
وأعذرونى أيها السادة إن حدلمت صندوق العجائب
وتقيأت على وجه أمير المؤمنيـــن

٤ــ إشاعة الرموز النصرانية :

يقول عبد الوهاب البياتى فى تحيا إلى الجزائر :

أقسمت يا جزائرى الجديدة . .
أن إحمل الصليـــب ...
أن أطـــا اللهيـــــب

ويقول صلاح عبد الصبور فى الظل والصليب :

أنا الذى أحيا بلا ظل بلا صليـــب
الظل لص يســـــرق السعادة
ومن يعش بظله يمشى إلى الصليب فى نهاية الطريق

ويقول نزار فى سطريته (لا) :

لو أنهم من خلف طاولتهم

قد خرجوا كما خرجت أنت
وأحترقوا فى لهب المجد كما احترقت
لم يسقط المسيح مذبوحا على تراب الناصرة

وأختم هذه النماذج بسطور لصلاح عبد الصبور من نظم (الناس فى بلادى) تظهر لنا بجلاء مدى انحراف هؤلاء الشعراء ، وكيف بلغوا ما بلغوه من شهرة ؟ ولم أحيطوا بالإكبار والتجلة ولا يزال الاحتفال بهم ومنهم من وسد الثرى.

يقول صلاح عبد الصبور :

الشمس محتلك والهلال تفرق الجبين
وهذه الجبال الراسيات عرشك المكين
وأنت نافذ القضاء أيها الإله
بنى فلان واعتلى وشيد القلاع
وأربعون غرفة قد ملئت بالذهب اللماع
وفى مساء واهن الأصداء جاءه عز ربك
يحمل بين إصبعيه دفتراً صغيراً ... ومد عزريل عصاه
بسر حرفى (كن) بسر لفظ (كان)
وفى الجحيم دُحرجت روح فلان
يا أيها الإله
كم أنت قاس موحش يا أيها الإله

أظننى بعد ذلك الإستعراض السريع لما فات فى غنى عن الإشارة لأهمية أدب إسلامى إجابة على السؤال السابق يزيل الأدناس ويمحو الأدران التى لحقت بأدبنا العربى على مدى تاريخه الطويل ، والحاجة إلى

أديب مسلم يعبر عن الخلق القويم و لسلوك المستقيم ، لأنه سيصدر عن عقيدة صحيحة وعن الركائز الصادقة والقيم التى تصقل الذوق وتنمى حاسة الجمال وتعلى القيم الفاضلة ، وأما ما يؤذى القارئ فى عقيدته وذوقه وخلقه فلا نتوانى عن تسفيهه ورفضه سواء أكتب بلغة عربية أم بأية لغة أخرى .

فالأدب الإسلامى هو التعبير عن الكون والحياة والإنسان من خلال التصور الإسلامى ، أو هو التعبير الفنى الهادف عن وقع الحياة والكون والإنسان على وجدان الأديب من خلال التصور الإسلامى فى العدل والحق والجمال والخلق والحب والبذل والعطاء والفداء والجهاد والإيمان وكل المعانى المتقرعة عما سبق والوفاء والصدق .

ولقد جعل بعض الناس تفوق الشاعر رهنا ببراعته فى المدح والهجاء ، واستساغوا الكذب فقالوا : أعذب الشعر أكذبه وأن الشاعر لا يطالب بأن يكون قوله صدقاً[1] .

بل والأعجب من هذا أن من نقادنا الأوائل من يفتح الباب على مصاريعه يعلج منه الأديب إلى صفات غير حميدة ويلتمس المبررات لذلك ثم يدله كيف يكون جباناً أو منافقاً أو مرائياً ، وجعلوا تلون الشاعر وتقلبه بين المديح والذم دليل براعة واقتدار وقرروا أن الطمع أول دواعى الشعر ، وأن التعرض للسلطان وعدم مداراته حمق فيقول ابن

---

[1] ص ١/٤٠٤ : الموازنة . للأمدى .

رشيق فى العمدة[١] : "وأحمق الشعراء عندى من ادخل نفسه فى هـذا الباب وتعرض له ، وما للشاعر والتعرض للحتوف ، وإنما هـو طـالب فضل ، فلم يضيع رأس ماله ؟؟ وكل شئ محتمل إلا الطعن فى الـدول ، فإن دعت إلى ذلك ضرورة مجحفة فتعصب المرء لمن هو فـى ملكـه وتحت سلطانه أصوب وأعذر له من كل جهة وعلى كل حال" .

ذلك منطق غير مقبول وأن صدر من ناقد مثل ابـن رشـيق لأنـه يصطدم والقيم الداعية إلى الإلتزام بالخلق القويم وترجيح السلوك الأمثل فى ميزان المفاضلة بين قيم سامية وأخرى هابطة والشاعر على عكـس ما أشار إليه ابن رشيق فى ضوء التصور الإسلامى ثابت على المبدأ لأنه يقول الكلمة عن اقتناع بها معبراً عن مشاعر وأحاسيس صادق .

ولقد ترجم حسان بن ثابت وجهة الإسلام فى قضيـة الصـدق والكـذب بقوله:

وإنما الشعر لب المـرء يعرضـه ... على المجالس إن كيسا وإن حمقـاً
وإن أفضل بيـت أنـت قائـلـه ... بيـت يقـال إذا أنشدتـه صدقـا

لا منطق البحترى الذى يقول :

كلفتمـونـا حـدود منطقكـم ... والشعر يغنى عند صدقـه كذبـه

فإن الإسلام جاء ليضع للناس ــ ومنهم الشعراء ــ منهجاً يلـتزمون به وطريقاً لا يحيدون عنه ، ورسالة لا يضلون بها ولا يشقون ، وهدفـاً

---

[١] ص١/٤٥ : العمـدة لابن رشيق .

مرسوماً يجاهدون فى سبيل تحقيقه[١] ، فمن آمن وصدق وعمل بما أمر فأولئك هم الفائزون ، ومن خالف إلى ما نُهى عنه كإن شعره مضيعة للأجر والجهد معاً ، بل كان قطافه قطاف الآخرين أعجلا الذين ضل سعيهم فى الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يُحسنون صنعاً .

إذن يمكن أن نقول إن الميزان الذى يقاس به الشعر هو الدين فما وافقه وانطلق فى رحابه ، كان هو المعترف به ، وما شاقه وسلك غير سبيله فليس للاعتراف به من سبيل ، إما أن تكون رسالة الشعر وقفاً على مدح المبطلين والهتاف فى مواكب الطاغيين وتزيين السوء والتمهيد بالمزالق لمواطن الشبهات فهذا ما نزه رب العزة عباده الصادقين وأعلن الحرب على سماسرته وتجاره .

يقول سيد قطب :

"ليست وظيفة هذا الأدب أو الفن ، هو تزويراً لشخصيته الإنسانية ، أو الواقع الحيوى ، وإبراز الحياة البشرية فى صورة مثالية لا وجود لها ، إنما هو الصدق فى تصوير المقدرات الكامنة أو الظاهرة فى الإنسان ، والصدق كذلك فى تصوير أهداف الحياة اللائقة بعالم من البشر لا بقطيع من الذئاب .

الأدب أو الفن المنبثق من التصور الإسلامى أدب أو فن موجه بحكم

---

[١] ص٦٦ : الشعر والدعوة فى عصر النبوة ، يوسف محيى الدين أبو هلالة

أن الإسلام حركة تطوير مستمرة للحياة فهو لا يرضى بالواقع فى لحظة أو جيل ولا يبرره أو يزينه لمجرد أنه واقع ، فمهمته الرئيسة هى تغيير هذا الواقع وتحسينه".

والشعر فى الإسلام يستمد مفهومه من أصل أصيل يعرفه ويلتزم به وهو (الصدق) الذى ينهى عن الإحراف وعن تمزيق الأعراض ظلماً وعدواناً وعن القدح فى الأنساب وعن بيع الهوى بالكلمة لأن الإسلام كذلك يجعل الأخلاق إطاراً للشعر والفن عموماً ، ويجعل التقيد بها ضابطاً مهماً ، ونحن نرى إلى أى درك ينمط الشعر الذى يفلت من ضوابط الخلق ويتمرد على دائرة الصدق ، وإن عد بعض الناس هذا الالتزام بالصدق والخلق قيداً يحول دون حرية الإجادة والإبداع ونسى هؤلاء أن الصدق فى التعبير الناشئ عن نبل العاطفة مع موافقة الخلق من مقاييس الجودة والإبداع فى العمل الأدبى .

إذن الأدب الإسلامى كلون بارز من ألوان الفنون له سماته وخصائصه وأسسه ينظر إلى الكون ومفرداته أو إلى الحياة وحركتها وإلى المخلوقات وصراعاتها نظرة يحكمها التصور الإسلامى والإلتزام العقدى ، ويحلل بصدق همسات النفس وإشراق الروح وتفاعل الفكر ، وتوهجات السمو الإنسانى ، وتدنيات اليأس والألم والحيرة ، وينتصر لقيم الخير والحق والجمال فى الإطار الفنى الناجح وفى نسيج من الصدق ، ويجعل من الفن والالتزام كياناً واحداً لا انفصام فيه ، ولا تمزق أو تضاد .

الأدب الإسلامى أدب عف تمتزج فيه المتعة بالمنفعة وتنتفى عنه

التسلية الرخيصة ، والسخرية المؤذيـــة ، لأنـــه أدب تحكمـــه ضوابـــط وشروط من نوع خاص ، نابعة من أصالة الإسلام وعراقته ومسئوليته ، وهذه الضوابط والشروط لا تتعارض أو تتصادم مـــع الحريـــة ، حريـــة العقلاء والشرفاء .

فالالتزام الفكرى ليس بدعاً فى الإسلام لأننا نجد الالـــتزام فـــى كـــل فلسفة من الفلسفات القديمة والمعاصرة ، وفى كل مدرسة من مـــدارس الفن والأدب ، بل وفى المذاهب السياســـية علـــى اختـــلاف مشـــاربها واتجاهاتها .

إنه التزام نابع من القناعة ومن الذات ومن المعتقد الأصيـــل الـــذى يعيش الإنسان فى رحابه ويستظل بظله ، وكذلك من قـــال إن الالـــتزام نقيض الحرية ، لأن أصحاب مذهب الفن للفن وغيرهم مـــن المتحللين والإباحيين يلتزمون هم أيضا بمبادئ وقواعد ارتضوها لأنفســـهم فـــى آدابهم التى يبتدعونها ويروجون لها[1] .

إن النتاج الأدبى الفاسد بقيمه العفنة والفجة والمدمرة يملأ الأســـواق ويسيطر على الأذواق ، وينحرف بالوجدان ويصوغ مـــن أبنـــاء الأمـــة الإسلامية نسخاً مشوهة غريب التراكيب ، عجيـــب التصويـــر ، شـــاذ السلوك، مضطرب الفكر ، ومن ثم وجد جيل من الحيارى يلتمسون مثلهم من شخصيات الأفلام الهابطة والأعمال التى تجسد الفوضـــى والحريـــة

---

[1] ص ١٢٥ : آفاق الأدب الإسلامى.

الاجتماعية والأسرية ، ويبحثون عن قيمهم لدى شخصيات الروايات التى تجنح إلى التمرد على كل شئ وترفض أى شئ إلا أهواء النفس وميلها إلى الجشع والأنانية والحقد . هذه الشخصيات التى تصور بعناية فائقة وخبث ماكر .

والأديب المسلم هو الذى يستطيع أن يقدم شيئاً مفيداً لبنى عقيدته ، كما يستطيع أن يلج عديداً من الأبواب يدلف فيها إلى التائهين والضائعين والممزقين فى هذا العصر لأنه أديب يلتزم بمبادئه ، وبكل قضايا الإنسان النفسية والعاطفية والاجتماعية وغيرها ويعمل ويبدع تحت شعار : (من غشنا فليس منا) .

ذلك لأن من أولى خصائص الأدب الإسلامى هى أنه أدب ملتزم ، وكل ما سوى هذه الصفة ، فهو ينبثق منها ؛ متفرع عليها[1] ، وتختلف المذاهب الأدبية المعاصرة فى فهمها للالتزام فالواقعية الاشتراكية هى أول من استخدم هذا المصطلح ، وأرادت منه : أن يكون على الأديب التزام خط معين فى عمله فيسخره ويقصره على (خدمة قضايا الجماهير وحل مشكلاتهم) على الطريقة التى تريدها وترسمها الماركسية ، فلا يكتب ولا ينتج فى ما سواها .

أما مذهب (الوجودية) فهو ينادى بإلتزام الأديب فى النثر وحده دون الشعر، قضايا (الحرية) حسب المفهوم الوجودى ليس إلا .

---

[1] ص٦٥ : من قضايا الأدب الإسلامى ، د/ صالح آدم بيلو.

والالتزام بمعناه يشمل[١] :

١ــ حزم الأمر على الوقوف بجانب قضية سياسية أو إجتماعية أو فنية ، والانتقال من التأييد الداخلى إلى التعبير خارجياً عن هذا الموقف بكل ما ينتجه الأديب أو المفتن من آثار .

٢ــ اتباع نهج معين فى أساليب الفن أو الأدب ، أو تقيد بالطرائق المقررة فى مدرسة ناشئة ، أو مدرسة قد أثبتت وجودها وفرضت مفاهيمها ومقاييسها على فئة من الجيل المعاصر لها .

أما الإلتزام الذى نعنيه فى الأدب الإسلامى فهو الالتزام بمعناه عند اللغويين، إذ يعنى فى اللغة (الاعتناق) من ألزمته الشئ فطاوع فألتزمه واعتنقه.

وبما أن المجتمع الإسلامى يقوم على العقيدة والأخلاق أولا وقبل كل شئ فقد صار من البديهى أن يراعى الأديب المسلم هذه الحقيقة ، وأن يلتزم بها التزاماً كاملاً ؛ لأنه عند ذلك يضع فى اعتباره أنه أديب مسلم حقيقى فعليه أن يراعى القيم الأساسية فى هذا المجتمع وأن يلتزم بها لأن (المفتن الحقيقى هو ذلك الذى يمثل بفنه مثله العليا ... وينظر دائماً إلى عالمه بالمقارنة مع مثله وقيمه ومبادئه)[٢] .

فلا يصح للأديب ــ مهما كان مذهبه ــ أن يخرج على القيم العليا

---

[١] ص٣١ــ ٣٢ : المعجم الأدبى ، جبور عبد النور

[٢] ص٥٣ : الإسلامية والمذاهب الأدبية ، د/ نجيب الكيلانى.

التى آمن بها هو وآمن بها مجتمعه ، أو أن يجرحها ويؤذيها فيدعو إلى الزيغ والإلحاد والكفران ويحسنها ، وينفر من الاستقامة والطهر والنظافة وسبل الرشاد[١].

وتلك أدنى درجات الالتزام ، أن لم يراعها الأديب وخرج عليها وجب أن يوقف عند حده فهو امرؤ لا تكفيه المقالة ، ألم تر أن الخليفة عمر بن الخطاب قد سجن الحطيئة بعد أن تجاوز حدوده ، وتناول بلسانه أعراض المسلمين ، متجاوزاً تعاليم الدين الإسلامى الحنيف؟

ولا يقتصر دور الأديب المسلم على الوقوف عند حدود قيم مجتمعه المسلم، بل يقع عليه عبء إبراز تلك القيم العقيدية والخلقية السائدة فى مجتمعه فيدعو المتلقين للالتزام بها والتأثر بما فيها من مبادئ وسلوكيات ، وعليه أن ينفر مما هو ضدها ومناقض لها ؛ ليقوم بدور إيجابى فى مجتمعه وغيره من المجتمعات.

وبمعنى آخر فإن الإسلام يطالب الأديب المسلم بأن يدفع بأدبه إلى الفضيلة وأخواتها ، لا إلى الرذيلة ، وعندما يطلب منه ذلك فإنه لا يطلب منه أن يفعله بأسلوب الواعظ ، أو بخطابيه سياسية ،أو بطريق مباشر ، أشبه ما تكون بطريقة المصلح الاجتماعى ، بل على الأديب أن يفعل ذلك بأسلوب الفنان وبإيحاءاته وتأثيراته .

وعندما نتكلم عن (الالتزام) علينا أن نفرق بين الالتزام والإلزام ،

---

[١] ص٦٦ : من قضايا الأدب الإسلامى ، د/ صالح آدم بيلو.

وأن نوضح دائماً أنه ليس ثمة تعارض بين حرية الأديب والتزامه الحر ، وأن الالتزام من سمات الحركية غير الانتهازية .

فالإلزام خارج عن إرادة الأديب وتوجهاته ، أما الالتزام فهو نابع من نفس الأديب نتيجة قناعته الخاصة وفهمه الدقيق لدوره فى المجتمع . ألم نر الشعراء فى صدر الإسلام قد هجروا ألواناً أعتادوها من الشعر فى العصر الجاهلى كالفخر الكاذب والهجاء ، والخمر والغزل الفاحش ؛ وذلك لالتزامهم بالقيم الإجتماعية الجديدة التى جاءهم بها الدين الجديد ، بل أن بعضهم هجر قول الشعر التزاماً وحيطة كما فعل لبيد بن ربيعة[١].

فالإلتزام يكون بعيداً عن التسلط والعنف التى هى أساس الإلزام فى كثير من الحالات الخلقية والإجتماعية والفنية .

ومن هنا فإن الأدب الإسلامي التزام بالإسلام ، والتزام بالكلمة والتزام بالعقيدة ، والتزام فى السلوك لأنه أدب يقوم على تصور متكامل، له من المدى ما لا يحلم به بشر غير المؤمنين ، وله من الرحابة ما يجعله يتآلف مع الأرض والسماء ، وما حوتهما فى تناسق لا يدركه إلا المؤمنون ، ومحبة لا يذوقها إلا الصادقون[٢] .

الأديب المسلم فى ضوء التصور الإسلامى فى عنقه أمانة ، عليه أن

---

[١] ص١١٣ : فى الأدب الإسلامى ، د/ محمود شاكر سعيد.

[٢] ص٤٠ : فى الأدب الإسلامى المعاصر ، د/ محمد بريغش.

يحاول إبرازها ، فيتناول صراعات العصر على النطاق المحلى والعالمى ويحللها ويساهم فى كشف غموضها بتركيز الأضواء عليها حتى يستطيع أن يُسمع صوته للناس وأن يقول كلمة الإسلام بالأسلوب المناسب وفى الإطار الفنى السليم.

خصائص الأدب الإسلامى :

عندما يقاس هذا الأدب يجب أن يخضع لمقياسين :

١ــ مقياس إسلامى : يأخذ أصوله من التصور الشامل للكون والحياة والإنسان، وينطلق من كتاب الله وسنة نبيه .

٢ــ ومقياس فنى : يستقى أصوله من اللغة العربية وبلاغتها وسحرها الآخاذ وتقاليدها الفنية الخاصة بكل فن من فنون الأدب .

وبذلك نستطيع وصل ما أنقطع ، ورأب ما تصدع من هذا العمل الأدبى والنقدى الرفيع الذى توقف مدهما منذ أمد بعيد وبالتقريب منذ القرن الخامس الهجرى حيث انتهى مطاف الفكر العربى بنتاجه الثرى وتقاليده العربية الأصيلة بإنتهاء طائفة من العلماء الذين أسسوا وأرسوا قواعد متينة فى مجالات المعارف المختلفة والعلوم التى تخدم فى المقام الأول القرآن الكريم ولغته وبقى بصيص من النور يظهر فى مؤلفات من جاء بعد أولئك حتى ضاع الطريق وتاه المسلك وانقصمت العرى وتشتت الشمل عن الاتباع وتابعيهم فلا أقل من صحوة أدبية تضاهى إن لم تفق تلك الصحوة الأدبية التى نشطت فى بدايات هذا القرن تمد الجسور وتضخ دم الحياة فى عروق تيبست أو كادت عندما انفصلت عن الأصول:

أصول العقلية العربية الإسلامية وظنى أن دأب دعـــاة الأدب الإســـلامى وهمهم إنما هو فى هذا الاتجاه والمنحى.

وهذا يؤكد أن الإسلام يحمل الأديب مسئولية الكلمة التى يكتبـــها أو ينطقها ، لما لها من أثر فى نفوس وتوجهات المتلقيـــن ، وأن الأديـــب محاسب على كل لفظ ينطبق به أو يرسمه (ما يلفظ من قـــول إلا لديـــه رقيب عتيد)[1] .

ونظراً لأهمية الكلمة وأثرها فقد قال شاعرهم :

ومـــا مـــن كـــاتب الأسيفنـــــى ويبقـــى الدهـــر مـــا كتبـــت يـــداه
فلا تكتـــب بكفـــك غيـــر شـــــئ يســـرك فى القيامـــة أن تـــــراه

وهكذا يؤكد أن للأدب الإسلامى سمات واضحة ، ومعالم بارزة تميزه عـــن غيره من الآداب لأنه منطلق مـــن المقياســـين اللذيـــن ذكرنـــا قبـــلاً ، وقـــد أفاض نقاد الأدب الإسلامى فى تحديد تلك الخصائص والسمات ونذكر منها مـــا يلى :

١ـ الإلتزام العقدى وانخلقى :

وهذه أول صفة يتميز بها الأدب الإسلامى ، لأن المجتمع الإســـلامى يقوم على العقيدة والأخلاق أولاً وأخيراً ، لذا فإن أول ما يجب أن يلـــتزم به الأديب المسلم هو مراعاته للعقيدة والأخلاق ، وأن يضع فى اعتبـــاره أنه أديب مسلم حقيقى من جانب ، وأنه فرد يعيش فى مجتمع مسلم مـــن جانب آخر ، وعليه أن يراعى القيم الأساسية فى هذا المجتمع.

---

[1] الآية ١٨ سورة ق.

٢ـ الغائية والجدية الهادفة :

الإنسان المسلم يدرك مسئولية الكلمة ، ويدرك مسئولية المتكلم ، "وهل يكب الناس فى النار على مناخرهم إلا حصائد ألسنتهم ؟" ، والمسلم يعى معنى قوله صلى الله عليه وسلم : "رحم الله من قال خيراً فغنم أو سكت فسلم" ، وقوله عليه الصلاة والسلام : "إن الرجل ليتكلم بالكلمة لا يلقى لها بالاً تهوى به فى النار سبعين خريفاً" .

لهذا كله فإن الأديب المسلم ينزه قلمه ولسانه عن أن يخرج على الناس بعمل أدبى ليس من ورائه غاية جادة أو هدف مثمر ، لأنه يحرص على ألا يُضيع جهده وجهد قارئيه عبثاً دون فائدة .

لذلك فهو لا يكتب إلا بعد أن يسأل نفسه عدة أسئلة : لما أكتب ، وماذا أكتب ؟ وكيف أكتب ؟ ولمن أكتب ؟

٣ـ الشمول والتكامل :

قال تعالى : (وإذا قال ربك للملائكة إنى خالق بشراً من صلصال من حمأ* مسنون ۞ فإذا سويته ونفخت فيه من روحى فقعوا له ساجدين)[١] .

وقال جل شأنه : (إذا قال ربك للملائكة إنى خالق بشراً ۞ فإذا

---

* حمأ : الطين الأسود.

[١] الآيتان ٢٨، ٢٩ سورة الحجر.

سويته ونفخت فيه من روحى فقعوا له ساجدين)[١] .

وتشير هذه الآيات الكريمة وغيرها من آيات القرآن الكريم بصورة واضحة صريحة إلى جانبين أساسيين فى فطرة الإنسان وخلقته . جانبه المادى : الذى أشار إليه بالطين والصلصال والحمأ المسنون . وجانبه الروحى ؛ الذى أشار إليه بنفخ الروح وإضافة الروح إلى ضمير المتكلم إضافة اختصاص وتشريف؛ ليفيد أن هذا الجانب من الإنسان هو الجانب الأسمى والأرفع والذى بسببه كان الإنسان إنساناً وتميز به على سائر المخلوقات .

فالإسلام لا ينظر إلى الجانب المادى فى الإنسان بمعزل عن جانب الروح ، بل ينظر إلى الإنسان نظرة شمولية متكاملة لذا فإن الأديب المسلم عندما يتناول الإنسان يتناوله من هذا المنطلق .

٤ـ إنه أدب عفيف فاضل :

فالأديب المسلم لا ينطق بفحش ، ولا يغرى بقول أو عمل فيه ظلم أو اعتداء ، ولا يجأر بزور أو بهتان ، ولكنه يحث بأدبه بطريقة غير مباشرة على الفضيلة ، وينفر من الرذيلة .

٥ـ الصدق والواقعية :

فالأدب الإسلامى لا يرسم صورة مزورة للبشرية ، فهو لا يرى الإنسان فى صورة ناصعة البياض ، بل يرسم له صورة واقعية عميقة ،

---

[١] الآيتان ٧١ــ٧٢ سورة ص .

ينظر إلى الشر على أنه شر ، لا يزينه ويجعل منه فضيلة ، ولا يركز الضوء على الضعف ويجعل منه بطولة ، ولا يبرز الإنسان فى صورة ملائكة فقط أو فى صورة شيطان فقط بل يصور كلاً من صورته الحقيقية ويقول لمن أحسن أحسنت ، ولمن أساء أسأت .

وفى هذا النطاق فإن الأدب الإسلامى يصور ما فى الإنسان من نقائض وضعف وسقوط وهبوط على أساس أنها شرور يجب الابتعاد عنها والتخلص منها ، لا على أساس أنها واقع لازم لا محيد عنه ولا أمل فى الفكاك منه أو الارتفاع عليه .

٦ـ إنه أدب موجه :

ويعنى ذلك أنه لا يرضى بالأمر الواقع إذا كان سيئاً ، بل عليه أن يسعى لتغييره وتحسينه : "من رأى منكم منكراً فليغيره بيده فإن لم يستطع فبلسانه ، فإن لم يستطع فبقلبه ، وذلك أضعف الإيمان" كما فى رواية أو كما قال صلى الله عليه وسلم .

ذلك لأن الإسلام إنما جاء لتطوير الحياة وترقيتها ، ولم يأت ليرضى بكل أمر واقع "إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق" .

فالأديب المسلم يُحيى فى ملتقى أدبه اتجاهات سليمة واضحة ويوجهه إلى كل خُلق كريم وإلى كل تصرف سليم ، وينفر من كل الشرور ، وكل التصرفات الشريرة .

٧ـ الإيجابية والحيوية المتطورة :

وتأتى هذه السمة إنطلاقاً من أن الأدب الإسلامى ينبثق عن التصور

الإسلامى للكون والحياة والإنسان ، فالإسلام يعترف بأن فى الإنسان ضعفاً يجرد إلى السقوط ، ويدفعه إلى الإنحراف ويؤدى به إلى هوة الدنايا والإنحطاط.

وقد سجل القرآن الكريم هذه الحقيقة فى قوله تعالى : (وخلق الإنسان ضعيفاً)[١] ، وقوله جل شأنه : (إن الإنسان خُلق هلوعاً إذا مسه الشر جزوعاً ، وإذا مسه الخير منوعاً إلا المصلين)[٢] ، وقوله تعالى : (وإذا أنعمنا على الإنسان أعرض ونأى بجانبه ، وإذا مسه الشر كان يئووساً)[٣] ، وقوله عز وجل : (وإذا مس الإنسان الضر دعانا لجنبه أو قاعداً أو قائماً فلما كشفنا عنه ضره مر كأن لم يدعنا إلى ضر مسه)[٤] .

فهذه الآيات الكريمة توضح أن فى الإنسان ضعفاً يدفعه إلى السقوط والخطأ، إلى جانب ذلك فإن الإسلام يرى أن فى الإنسان استعداداً يُقدره على النهوض والإرتفاع والقيام من سقطته إذا سقط ، وأن فيه قوة هائلة لا حدود لها تعينه على التغيير والتبديل ، وتجعل منه كائناً إيجابياً فعالاً يقاوم الضعف الذى فى داخله ، والفساد الذى هو خارجه ويحيط به، ولا يليق بالإنسان أن يركن إلى سقطته وضعفه ، فيقف سلبياً

---

(١) الآية ٢٨ سورة النساء .

(٢) الآية ١٩ سورة المعارج .

(٣) الآية ٨٣ سورة الإسراء .

(٤) الآية ١٢ سورة يونس .

مستسلماً لعثرته هو ، أو خانعاً منكسراً لعثرات الآخريـــن : (إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم)[١].

فالإنسان قادر ــ بعون الله ــ على تغيير واقعه المتدنى ، وهـــو ذو طاقة فعالة تمكنه من تحسين هذا الواقع وتطويره إلى ما هـــو أفضـــل وأجمل .

٨ـ إنه أدب متأثر فى مضامينـه الفكريـة بـالقرآن الكريـم والسنـة النبوية الشريفة :

بإعتبارهما من أهم الركائز التى يستند إليها الأديب المسلم فى فكـره وتوجهاته ، حيث يجد الأديب المسلم فيهما علاجاً شـــافياً لكـــل قضايـــا الإنسان ومشكلاته ، كما يلمس فيهما زاداً يهدئ النفوس القلقة الحائرة (ألا بذكر الله تطمئن القلوب)[٢] ، ويبعث الأمن والطمأنينـــة فـــى حنايـــا القلوب المضطربة ، وينير الطريق للإنسانية فى دروب الحياة المتشابكة ولا سيما فى العصر الحديث.

٩ـ إنه أدب بناء ووسيلة إصلاح :

لا ينكر أحد الدور الذى يقوم به الأدب فى المجتمع ، وقدرته علـــى التأثير فى وجدان الناس ، فقد قال أبو تمام :

ولـــولا خلال سنهـــا الشعـــر مـــا درى بنـــاة العلا من أين تأتـــى المكـــارم

---

[١] الآية ١ سورة الرعـــد .

[٢] الآية ٢٨ سورة الرعد.

فتأثر الأدب ـ مهما كان نوعه ـ لا يخفى ، ومما لا شك فيه أن نظرة الإسلام إلى الكون والحياة هى أصح وأصدق من أى نظرة أخرى ومن ثم يكون الأدب المنبثق عن تصور الإسلام للكون والحياة والإنسان أو بما يشيد ويبنى ، ولا يدمر ولا يهدم ، بل يصلح ما أفسدته المذاهب الأدبية الأخرى ، ويقضى على ما عانته البشرية تحت لواء المذاهب المضللة وويلاتها .

تصوير الأدب الإسلامى للكون وعلاقته بالإنسان والحياة :

لا شك فى أن العمل الفنى الذى يندرج تحت لواء (الأدب الإسلامى) ينبثق عن التصور الإسلامى للكون والحياة والإنسان ، وما يتصل بها من حقائق وقضايا باعتبارها محاور رئيسية يدور الأدب فى رحابها وتجرى أحداثه على أرضها .

ولا شكل فى أن التصور الإسلامى للكون والحياة والإنسان هو أشمل تصور عرفته البشرية ، لأنه تصور لا يأخذ جانباً من الوجود ، ويدع جانباً آخر ، بل يأخذ الوجود كله بمادياته ومعنوياته ، وكل كائناته بعين الاعتبار فى تصوره كما يتضح لنا فيما يلى :

يبدأ التصور الإسلامى من الحقيقة الإلهية التى يصدر عنها الوجود كله، ثم يسير مع هذا الكون فى كل صورة وأشكاله وكائناته وموجوداته ، ثم يعنى بالإنسان عناية خاصة ، وما يتصل به من قضايا تكتنف كيانه وحياته كلها :

١ـ التصور الإسلامى للحقيقية الإلهية :

يصور الإسلام (الله) فى أوضح صورة وعاها الحس البشرى ، وفى أروع صورة عرفتها البشرية ، فى صورة تروع الحس البشرى وتهزه فى أعماقه ، إنها صورة واضحة جلية لا غموض فيها ولا تعقيد فالله هو الخالق المدبر ، والقادر المهيمن ، الذى خلق كل شئ وهو ـ سبحانه ـ ذو قدرة ، وذو حكمه بالغة ، وعلم شامل ، ودقة معجزة ، إن قدرته ـ سبحانه وتعالى ـ مطلقة لا يحدها شئ ، ولا يقف فى طريقها شئ ، بيده ملكوت كل شئ وإليه ترجع الأمور ، وهو واحد لا شريك له : (قل هو الله أحد ۞ الله الصمد ۞ لم يلد ولم يولد ۞ ولم يكن له كفوا أحد)[١]، (هو الله الذى لا إله إلا هو عالم الغيب والشهادة هو الرحمن الرحيم ۞ هو الله الذى لا إله إلا هو الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار المتكبر سبحان الله عما يشركون)[٢] .

ومن ثم فإن التصور الإسلامى يوجه القلب البشرى إلى قدرة الله المبدعة فى الكون ، ننظر إلى قول الله تعالى : (إن فى خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولى الألباب ۞ الذين يذكرون الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم ويتفكرون فى خلق السموات والأرض ربنا ما خلقت هذا باطلاً سبحانك فقنا عذاب النار)[٣] ، وقوله ، جل شأنه

---

[١] سورة الإخلاص .

[٢] الآيتان ٢٢ ، ٢٣ سورة الحشر .

[٣] الآيتان ١٩٠ ـ ١٩١ سورة آل عمران .

(إن فى خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار والفلك التى تجرى فى البحر بما ينفع الناس وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها وبث فيها من كل دابة وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والأرض لآيات لقوم يعقلون)[١].

وقوله تعالى : (فلينظر الإنسان إلى طعامه أنا صببنا الماء صبا ۞ ثم شققنا الأرض شقاً ۞ فأنبتنا فيها حباً ۞ وعنباً وقضبا ۞ وزيتوناً ونخلا ۞ وحدائق غلباً ۞ وفاكهة وأبا ۞ متاعاً لك ولأنعامكم)[٢] .

كما يوجه التصور الإسلامى القلب البشرى إلى قدرة الله القاهرة فالقرآن الكريم يقول : (له ما فى السموات وما فى الأرض ، من ذا الذى يشفع عنده إلا بأذنه يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولا يحيطون بشئ من علمه إلا بما شاء وسع كرسيه السموات والأرض ولا يؤوده حفظهما وهى العلى العظيم[٣].

ويقول تعالى : (الذى جعل لكم من الشجر الأخضر ناراً فإذا أنتم منه توقدون ۞ أو ليس خلق السموات والأرض بقادر على أن يخلق مثلهم بلى وهو الخلاق العليم إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون ۞ فسبحانه الذى بيده ملكوت كل شئ وإليه ترجعون)[٤].

---

(١) الآية ١٦٤ سورة البقرة .

(٢) الآيات ٢٤ ــ ٣٢ سورة عبس .

(٣) الآية ٢٥٥ البقرة .

(٤) الآيات ٨٠ ــ ٨٣ يس .